IV. ثقافة التطور

الاختزال الشائع عن الداروينية:
يبدو أنه لا يرضى القرد أيضًا!!!

obeikandl.com

مواقف متباينة

عندما أطلع توماس هكسلى على «أصل الأنواع»، اتهم نفسه بالغباء لأن ما به من أفكار لم يراوده من قبل. لقد سلم بصحته المطلقة، ودافع عنه بقوة كما ذكرنا. وكانت له أجندته الخاصة المعادية للاهوت الطبيعى، وإن كان ذلك لم يمنعه من المشاركة فى الطقوس الدينية التى جرت عند دفن صديقه العزيز عام ١٨٨٢ الذى حمل نعشه.

هذا الموقف يخالف ما ذهبت إليه سيدة فاضلة، زوجة لأحد رجال الدين، عندما حضرت صالونًا يناقش هذه الأفكار. لقد تمنت أن يكون داروين مخطئا، وإذا كان على صواب ألا تنتشر أفكاره بين الناس!! هذا الموقف يذكرنى بسيدة أخرى كانت تستمع إلي محاضرة لعالم يتحدث عن نهاية الكون، وذكر أنه قد تكون بعد بليون عام. لقد انزعجت وتساءلت عما إذا كان قد قال مليون عام فقط، فقال لها بل

بليون عام. فانفرجت أساريرها، لأن أمامها وقت طويل!! علينا أن نتفهم هذه المواقف غير العلمية، وندرك كما سنرى أن الانتصار العلمى للتطور لم يصاحبه انتصار ثقافى بنفس الدرجة. ألا تعترف بأن كل ما فى التطور من علم ومعرفة يختصر عند الغالبية العظمى بالربط الساذج بين الإنسان والقرد؟

ولابد أن أحيى هنا مواقف بعض علمائنا، الذين أصلوا للمفهوم فى ثقافتنا، وأكدوا أننا أسهمنا فيه قبل تحول التطور إلى علم له تطبيقات كثيرة تطرقنا إليها فى الفصل السابق. وهذا هو الموقف الذى انطلقت منه الكراسة الحالية.

لمحات من ثقافة التطور

لقد قدم داروين فى كتابه نموذجًا للتدليل العلمى، بأسلوب سهل وجميل. ويحسب له ما أثاره من حيوية وجدال، ميزتا القبول والرفض. وصار التطور، بعيدًا عن مجال البيولوجيا، عنوانا لكل شىء. لقد انعكس على الأسئلة

الكبرى: أسئلة الأصول، نحن نتحدث عن أصل الكون وتطوره، وكذلك الأرض والحياة. وامتد إلى الثقافة، فنحن نتحدث عن تطور الوعى والحضارة والعلم والتكنولوجيا، بل والموسيقى والأدب وكل الفنون الأخرى. وندرس تطور اللغات والملابس ووسائل التسلية. ويمكن للقارئ أن يضيف الكثير إلى هذه القائمة. إن التطور من أهم المفاهيم التى ساهمت فى «تطور» الفكر. ولا شك أن التطور البيولوچى وما أثاره من جدال قد لعب دورًا ثقافيًا هامًا فى ذلك.

ومرة أخرى، بعيدًا عن التدقيق البيولوچى، ارتبط مفهوم التطور بالتقدم، وبضرورات التغيير. وأسهم فى مفاهيم التخطيط والتطور الموجه والدراسات المستقبلية، التى شبت عن الطوق، وصارت أحد المجالات التى يحاول الإنسان من خلالها تشكيل عالم أفضل، لا ينظر إلى البللورة السحرية لمعرفته أو يقعد فى انتظاره.

ومع كل هذه الإيجابيات للمفهوم، يحق لنا أن نتساءل

عن ضعف القبول الثقافى للتطور البيولوچى بالذات، رغم القبول العلمى الغالب والفائدة التطبيقية. والإجابة البسيطة تتمثل فى خلط الأوراق مع الدين والأيديولوچيا. وهذا ما سنحاول توضيحه.

الداروينية والدين:

كانت الكنيسة الكاثوليكية أكثر قبولاً لداروين من قبولها لجاليليو. لقد أكد البابا بول الثانى ما سبق أن أوضحه البابا بيوس الثانى عشر من عدم تعارض نظرية التطور مع الإيمان. وقد ذكرنا سابقًا أن ألفريد رسل والاس، الذى توصل إلى نفس نتائج داروين ودفعه إلي الإسراع فى نشر كتابه، كان عميق الإيمان. كذلك كان فيشر ودوبجانسكى. واليوم نجد علماء عديدين، مثل فرانسيسكو آيالا، يدرسون اللاهوت ولا يجدون أى تعارض بين علم التطور والدين. بصرف النظر عن موقف عالم التطور الكبير ستيفن چى جولد، الذى رحل عن عالمنا منذ سنوات، من الدين فقد عالج الموضوع بصورة معتدلة (صخور العصور، ١٩٩٩)، وله مقال شهير فى مجلة

سيانتنيك أمريكان (قمت بترجمتها فى الطبعة العربية، التى تصدر فى الكويت) يؤكد فيه أن الموقف من التطور لا يحدد موقف علمائه من الإيمان، ففيهم المؤمن وفيهم غير ذلك.

لكن الموقف الحاد المعادى للدين، مثل هكسلى قديمًا وريتشارد دوكنز حديثا، أعطى فرصة لرافضى التطور لربطه بالمادية والإلحاد. لقد أوضح فرانسيسكو آيالا أن العلم طبيعى، أى يدرس الطبيعية ويساعدنا على فهم قوانينها وتطويعها لصالحنا، وليس ماديا بكل ما تحمله هذه الكلمة من مضامين لا علاقة لها بالعلم. وقد فضح آيالا فى كتابه «هبة داروين للعلم والدين»، الذى نعرضه فى أول ملاحق الكتاب، وفيليب كنشر، فى كتابه «الحياة مع داروين»، الصادر عن جامعة أكسفورد (٢٠٠٧)، وغيرهما محاولات البعض لتقديم بدائل للتطور، تعد من قبيل «العلم الزائف»، وإن غلفت بالأسماء البراقة.

أول البدائل أسماه أصحابه «بالخلقوية»، بحيث يتهمون من يرفضه بإنكار الخلق. فرغم تجاوز التفسير الحرفى لسفر

التكوين بالنسبة لعمر الأرض ونشأة الكائنات، يقدمون الخمر القديمة فى آنية جديدة، كما يقول المثل المشهور. ويجدون من يمول لهم متحفا كبيرة ومطبوعات كثيرة. لكن التفنيد العلمى يسقط هذا الاتجاه، ويثبت أنه خلط معيب بين الدين والعلم. لقد حاول أصحابه منذ عشرينيات القرن الماضى إدخاله فى المناهج التعليمية بحجة الفرصة المتساوية. ولأن الدستور الأمريكى لا يسمح بذلك، عادوا بصورة «أكثر علمية»، من وجهة نظرهم، تحت اسم «التصميم الذكى»، فهم يرون أن كل أشكال التطور موجهة نحو كمال التصميم إن من يحكم على كمال الشىء يمكن أن يحكم على نقصانه، فماذا لو اختلفوا على مدى كمال التصميم فى هذا الكائن أو ذاك؟ إنه مرة أخرى خلط معيب بين الدين والعلم، رفضت المحاكم مرات عديدة طلبهم بتدريسه، وإن كانت المحاولات جارية، وتحقق بعض النجاح فى مجالس الولايات.

أما بالنسبة لنا فقد لجأنا إلى تأصيل المفهوم فى ثقافتنا، ونحيى العلماء الذين رأوا أن صحيح الدين يدعوهم إلى

الانتصار للعلم الذى دعانا الله إليه. نتعامل مع التطور كعلم يصحح نفسه كأى علم. ونحرص على عدم الخلط، حتى فى المصطلح. وهذه نقطة هامة، فالبعض يقول أنه يؤمن بالعلم أو بالتطور. إننى أدعو إلى استعمال مصطلح «الإيمان» مع موضوعاته الصحيحة كما ذكرنا. أما العلم فنقتنع به، اقتناعًا مشروطًا ومفتوحًا للتصحيح والتنقيح، الدين يقدم على الإيمان واليقين، والعلم يقوم على الاقتناع والاختبار. ولا خلط بين المنهجين، أو حتى المصطلحين! إننا نعد التطور سنة الله فى خلقه، وندرس آلياته، ونصحح فهمنا لها باستمرار.

التطور والأيديولوجيا:

يحكى أن داروين اعتذر عن قبول إهداء ماركس كتاب «رأس المال» له، وأنه لم يجد رابطا بين ما قاله وبين الأيديولوچيا، لكن بعض أعداء التطور يربطون بين الداروينية وبين كل الشرور،ويذكرون دائمًا أن النازية قد استمدت فلسفتها ومارست تطبيقاتها انطلاقًا من الداروينية. والحقيقة أن الاتجاه الذى سمى «بالداروينية الاجتماعية» قد ساعد فى ترسيخ هذا الربط الظالم. إن داروين ليس صاحب

عبارتى «البقاء للأقوى، أو «البقاء للأصلح». والتطبيق الاجتماعى للتمييز بين البشر على أساس قدراتهم على أساس قدراتهم وذكائهم كان أسبق من أصل الأنواع، وساهم فيه قريبه فرانسيس جالتون وليس هو. إن داروين نفسه كان كارها للعبودية. وباختصار، لقد ألصق اسم داروين بما لا علاقة له به، وأسئ تفسير ما قاله عن عالم الكائنات الحية بالتطبيق غير السليم على المجتمعات البشرية.

القبول المجتمعى للتطور:

بين الحين والآخر تجرى استقصاءات للرأى على عينات من المثقفين، الذين لديهم معرفة معقولة عن داروين ونظريته وفى آخر استقصاء أجرى فى إبريل/ مايو ٢٠٠٩، ظهرت النتائجة المرفقة على عينة من عشر دول. وفى مصر، باعتبارها الدولة العربية الوحيدة، كانت نسبة من يقبلون بقوة ١٣٪، ومن يميلون إلى القبول ١٢٪، ومن لا يقبلون أو يرفضون ٦٪، ومن لا يعرفون ٦٪، ومن يميلون إلى الرفض ٧٪، ومن يرفضون بقوة ٥٦٪. ويذكر أنه فى استقصاء سابق، أجرى فى

جدول يوضح مدى القبول للدليل العلمى على حدوث التطور (٪)

الدولة	قبول قوى	ميل إلى القبول	عدد القبول أو الرفض	عدم المعرفة	الميل إلى الرفض	الرفض بقوة
الهند	٣٠	٤٧	١٨	١	٢	٢
الصين	٢٧	٤٤	٢٠	٢	٤	٢
المكسيك	٢١	٤٣	٢٣	١	٩	١
بريطانيا	٢٦	٣٥	٢٤	٦	٦	٣
إسبانيا	٢٠	٤١	٢٧	٤	٤	٤
الأرجنتين	١٥	٤٢	٣٢	٢	٥	٤
روسيا	٨	٤٠	٢٤	١٩	٦	٣
أمريكا	١٩	٢٣	٢٧	٢	١١	١٩
جنوب أفريقيا	١٠	٣١	٣١	٨	٧	١٢
مصر	١٣	١٢	٦	٦	٧	٥٦

ملحوظة: مصر هى الأقل فى مجموع القبول والميل إلى القبول والأعلى فى الرفض بقوة!!!

obeikandl.com

تسعينيات القرن الماضى، كانت نسبة القبول أقل وإذ أترك للقارئ تأمل النسب فى الدول المختلفة، والتى تظهر زيادة مجموع الميل إلى القبول والقبول بقوة فى كل الدول إلا مصر التى كانت الأعلى من الرفض بقوة، أؤكد أن النتيجة الحقيقية لن تكون واضحة فى حالات غياب ثقافة علمية ناضجة.

obeikandl.com

خاتمة : احتفالية لم نغب عنها!!!

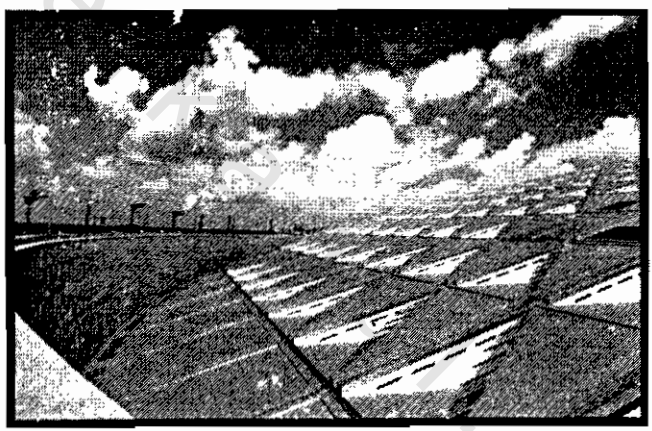

obeikandl.com

خاتمة احتفالية لم نغب عنها!!!

لقد بدأنا الحديث فى هذه الكراسة بذكر أن عام ٢٠٠٩ كان «عام الفلك والتطور»، وبأننا لا يصح أن نغيب عن مشاركة العالم فى الاحتفال بذلك. ولأن العمل الحالى يعنى بالتطور، فسيكون حديثنا عن مظاهر الاحتفال به، التى نعرفها، وما شهدته من إيجابيات وسلبيات.

ومن حق مكتبة الإسكندرية، هذا الصرح الثقافى الكبير، أن تكون البداية معها. فقد نظمت مع المركز الثقافى البريطانى مؤتمرًا كبيرًا بهذه المناسبة. وكان لعلاقاتها الدولية المتميزة أكبر الأثر فى الحضور المكثف لكبار العلماء والمتخصصين. لقد اطلعت على برنامج المؤتمر، الذى لم أستطع حضوره. وسعدت به بالطبع. إلا أننى كنت أوده مؤتمرًا ثقافيًا يتضمن الجوانب العلمية، وليس مؤتمرًا علميًا يتضمن الجوانب الثقافية. فهذا الحدث يعد حدث ثقافيًا بالأساس. أما المؤتمرات العلمية عن البيولوچيا الجزيئية والجينوم وغيره، فما أكثرها إننى أتفهم أن قلة المؤتمرات العلمية الكبيرة والجادة قد

تكون الدافع وراء ذلك، وأشكر المكتبة على كل حال. وكنت أتمنى أن تكون التغطية الإعلامية للمؤتمر أوسع بكثير. وإذا كان ذلك قصورًا منى فى المتابعة، فإننى أعتذر عن هذه الملاحظة، التى أذكرها عن حب، لأن هذا المؤتمر كان أكبر علامات الاحتفال. وفى معرض الإيجابيات، من حق الكاتب أن يذكر احتفال جامعته العزيزة (الزقازيق) بالمناسبة. لقد نظم قسم الوراثة الذى أعمل به «احتفالية داروين»، التى رعاها وحضرها رئيس الجامعة والأساتذة والطلاب. ولتنوع خلفيات الحاضرين، حرصت كمتحدث فى اللقاء على أن أجعله ثقافيا، يعالج تطور التطور، وآثاره الفكرية فى حياة البشر. وإن كنت لا أعرف بالضبط هل حدثت احتفالات فى جامعات أخرى أم لا، إلا أننى سعيد باحتفالنا، الذى حضره مدعوون من زملائنا فى الجامعات والمراكز العلمية الأخرى.

بالإضافة إلى ذلك، احتفلت بعض دور النشر بالمناسبة. فها هى المكتبة الأكاديمية تصدر الكتاب الذى بين يدى القارئ، كما شارك الكاتب فى لقاء آخر نظمته دار العين

للنشر. ولابد أن أذكر الدعوة الكريمة من قناة BBC العربية للمشاركة مرتين، أحدهما من منزلى، والأخرى فى حوار مفتوح ناقشت فيه شباب العرب فى نفس الموضوع، أحسست بعده بأهمية إعطاء المزيد من الاهتمام للثقافة العلمية الجادة، واللبيب بالإشارة يفهم!!!

ولأن عام ٢٠٠٩ شهد حدثًا هامًا له علاقة بالتطور، هو اكتشاف حفرية قبل بشرية سميث «آردى»، نسبة إلى جنسها، فقد أثار الكشف الكثير من الجدل. فتقدير عمرها يزيد عن أقدم حفرية سابقة «لوسى» بأكثر من مليون عام، ويمد عمر الحفريات قبل البشرية إلى ما يقارب ٥-٦ مليون عام. لقد ذكرت إحدى القنوات الفضائية العربية أن ذلك يعد هدما لنظرية داروين، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، كما سيعرف القارئ من أحد ملاحق هذه الكراسة. واستشارت أحد «العلماء» الذى أضاف القول بأن ذلك يؤكد للغرب خطأ نظرياته المادة، وذكر أيضًا أن عمر الأرض لا يزيد عن أربعمائة ألف عام، ولا حول ولا قوة إلا بالله. لقد وجدت

مجلة «سيانس» الشهيرة فى ذلك مادة للغمز واللمز، عند استعراضها لحصاد العلم فى عام ٢٠٠٩. وهذا ما حاولت تصحيحه عند الحديث عن هذا الحصاد فى أحد البرامج المصرية كبيرة المشاهدة «البيت بيتك»، الذى سيتحول إلى برنامج آخر.

لكن الأمانة تقتضى أن نفس القناة قدمت حلقة متميزة عن موقف الإسلام من التطور فى برنامج «الشريعة والحياة»، التى أحرص على مشاهدته. لقد ذكر العلامة يوسف القرضاوى فيه ما ذهب إليه عالمنا الدكتور عبدالله النجار وغيره من أن الإسلام ليس فيه ما يواجه النظريات والحقائق العلمية مثل التطور بالرفض أو القبول، ولكن بالدعوة إلى الدراسة والتفكر فى خلق الله. هذا الموقف الرائع يتبناه علماء آخرون مثل الصديق الدكتور عبدالمعطى بيومى وغيره.

وإذا كنا قد ذكرنا بعض الأمثلة من مصر والعالم العربى، إلا أن هنالك الكثير من المواقع على الإنترنت على سبيل المثال تنتصر للقبول والنقد بصورة عقلانية، أو للرفض غير العلمى

(أعمال كاتب يسمى نفسه هارون يحيى مثلاً)، وإن كان يكفينا هنا أننا لم نغب عن هذا الاحتفال، وأن بعض مشاركاتنا فيه لم تنس الريادة العربية الإسلامية فى تقديم مفهوم التطور، بالصورة التى يرى المنصفون أنها لابد وأن تكون قد أثرت على الفكر الغربى، وأسهمت فى تحويل المفهوم إلى علم من أهم العلوم.

obeikandl.com